العمارة الإسلامية بين الماضي . . . والحاضر. . . والمستقبل
المدخل البيئي لتفعيل العلاقة بين العمارة الإسلامية والعمارة المعاصرة

د . م / طارق عبد الرؤوف محمد
مدرس بقسم الهندسة المعمارية
جامعة القاهرة–كلية الهندسة

د . م / جاسر جميل عبد العظيم
مدرس بقسم الهندسة المعمارية
جامعة 6 أكتوبر–كلية الهندسة

ملخص: ارتبط مصطلح العمارة الإسلامية لدى العامة والعديد من المعماريين بهذه الأشكال والمفردات التي أنتجتها في عصورها المتتالية, على الرغم أن فكر العمارة الإسلامية كان يُطبق بجميع مضامينه وأسراره وروحانياته, ليس إنتاجا لأشكال أو تركيب لها وإنما خبرات متتالية وإسقاطات دينية واجتماعية وثقافية لاواعية وحلولا لمشاكل بيئية واجتماعية، إنها حالة من الاحتياج الحقيقي لإنتاج عمارة مناسبة ومتوائمة مع هذا المجتمع.

ثم ما لبث هذا الفكر أن تلاشى مضمونه القوي الراسخ من أفكار ورؤى المصممون, وذلك بسبب سيطرة الفكر الغربي واستعماره وانجراف معظم معمارييننا العرب نحو عمارة الغرب بصورة شكلية وبعيدة حتى عن مضامين هذا الفكر الغربي وأصوله وأسباب تطوره, وبالتالي تجاهلوا فلسفة ومبادئ العمارة الإسلامية من ناحية والغربية من ناحية أخرى.

والمشكلة البحثية هي أن محاولات التعامل مع التراث الإسلامي في العمارة المعاصرة أصبحت ما هي إلا تغليف لمباني غربية التكوين بمفردات إسلامية كما حدث في اغلب توجهات ما بعد الحداثة في عمران العالم العربي الذي تعامل بصورة مباشرة مع لغة الأشكال لإحداث حالة من التوافق مع الذوق العام, وأصبحت عمارة تلك المجتمعات العربية على ما هي عليه الآن , وباتت لغتنا مفككة ركيكة.

من هنا **يهدف البحث** إلى محاولة الربط بين المتغيرات التي شكلت العمارة المعاصرة والمفاهيم التي أوجدت العمارة الإسلامية خلال المدخل البيئي في التصميم والتوجهات المختلفة التي تعاملت مع هذا المدخل لإنتاج عمارة تتوافق مع كلٍ من البيئة والتقدم العلمي والتقني المعاصر, بالإضافة إلى إظهار بعض التجارب التي تعاملت مع العمارة المعاصرة خلال هذا المفهوم لتنتج نموذج معمارى معاصر تقنياً إلا انه يحترم المبادئ والمفاهيم المؤسسة للعمارة الإسلامية.

ويتكون البحث من ثلاث محاور رئيسية بالإضافة للمقدمة والخلاصة البحثية، المحور الأول يتعرض للمبادئ التي شكلت العمارة الإسلامية واثر هذه المبادئ في إنتاج الأشكال المُعبرة عنها، والمشاكل التي تواجه الفكر المعمارى المعاصر، والأسباب التي أدت إلى المشاكل المعاصرة في العمارة. المحور الثاني يتعرض للمدخل البيئي وأثره في إنتاج العمارة الإسلامية التراثية وكيفية التعامل معه لاستخلاص المبادئ التى تؤدي إلى تفعيل العلاقة بين العمارة الإسلامية والعمارة المعاصرة, أما المحور الثالث فيناقش التجارب التي تعاملت مع العمارة المعاصرة , وتصنيف هذه التجارب حسب تعاملها مع فكرة التوافق البيئي والتى وجد البحث أنها انقسمت إلى ثلاث توجهات رئيسية من حيث فكرة التواصل مع العمارة الإسلامية لإنتاج أشكال معبرة عن هذه القيمة وهى:

1- تشكيلات ومعالجات تقليدية للتوافق مع المحددات البيئية.
2- تطوير التشكيلات التقليدية مع الحفاظ على التوافق البيئة.
3- احترام المحددات البيئية كمدخل لتوافق العمارة المعاصرة مع العمارة الإسلامية.

محور المؤتمر: بعث الفن والعمارة الإسلامية فى حياتنا المعاصرة – نماذج من الربط بين العمارة الحديثة والحضارة الإسلامية دعوة لإظهار هذه التجارب.
الكلمات المفتاحية: العمارة الإسلامية – الدراسات المناخية – العمارة المعاصرة – التوافق البيئي.

1. مقدمة

الحداثة لا تعني بالضرورة رفض التراث – ومنها العمارة والفكر الإسلامي - ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى المعاصرة, ومواكبة التقدم العلمي والتكنولوجيا... فالمعاصرة بالنسبة لنا يجب أن تتحدد لا بالزمان, بل بالتواصل الذي يساعد على اكتساب رؤية واعية صحيحة للقضايا التي تواجه المعماري العربي, والشعوب تحقق نهضتها بالانتظام في تراثها هي, وليس في تراث غيرها, بشرط تحديث الفكر وتجديد أدوات التفكير وصولاً إلى تشييد ثقافة عربية معاصرة وأصيلة معاً, وتجديد الفكر لا يتم إلا من خلال الثقافة التي ينتمي إليها هذا الفكر.

لكن وللأسف الشديد ارتبط مصطلح العمارة الإسلامية لدى العامة والعديد من المعماريين بهذه الأشكال والمفردات التي أنتجتها في عصورها المتتالية, على الرغم أن فكر العمارة الإسلامية كان يُطبق بجميع مضامينه وأسراره وروحانياته, ليس إنتاجا لأشكال أو تركيب لها وإنما خبرات متتالية وإسقاطات دينية واجتماعية وثقافية لاواعية وحلولا لمشاكل بيئية واجتماعية وتوافقا مع البيئة والمناخ والاحتياجات المتغيرة من عصر لعصر. وهو ما آن لنا أن نفكر في كيفية إيجاد الصلة بين المتغيرات الحياتية المعاصرة ومفاهيم الفكر المعمارى الاسلامى.

2. المبادئ التي شكلت العمارة الإسلامية ومشاكل العمارة المعاصرة

هنا نحن نتحدث عن مبادئ أسست للمعمار الاسلامى وعن الكيفية التي اندثرت بها هذه المبادئ معناها وان تواجدت بصورة شكلية.

2-1 المبادئ المؤسسة للفكر المعماري الإسلامي

إذا ما تم التعرض لأفكار ومبادئ العمارة الإسلامية, نجد أن هناك بعض المؤثرات والمحددات القوية الرئيسية التي شكلت وبلورت هذه الأفكار وتلك المبادئ... وقد انقسمت هذه المؤثرات بدورها إلى ثلاث عوامل:- عوامل ميتافيزيقية, وعوامل لا فيزيقية,وعوامل فيزيقية, يتم تفسيرها باختصار:

2-1-1 العوامل الميتافيزيقية

والذي يشمل جميع الجوانب والتأثيرات الثقافية والعقائدية في حياة ومحيط الإنسان, تلك الثوابت العقائدية على رأسها مفهوم التوحيد بمعنى وحدانية الخالق, وكرؤية مفهوميه للعالم يعني اعتبار الكون بأكمله وحدة واحدة بدلاً من تقسيمه إلى الأضداد, الدنيا والآخرة, الطبيعة وما فوق الطبيعة, الجوهر والمعنى, الروح والجسد, أي عدم الفصل بين عالم دنيوي وعالم روحي, والتأكيد على أن الإنسان في هذا العالم وفي العالم الآخر وحدة لا تتجزأ.[1]

وقد جاء مفهوم التوحيد هذا مع ما استتبع ذلك من الثوابت القيمية والدينية ليعطي روح الإسلام وتؤسس ذلك المنهج العام والإطار الثابت الناتج عن ثبات العقيدة, ولكن هذا الإطار العقائدي الثابت لم يضع أحكام ثابتة للأمور المتغيرة, ولكنه وضع منهج يدعو لإعمال العقل والتدبر والتجربة والتعلم داخل هذا الإطار العام, وهذا ما ارتكزنا عليه وهو إعطاء مساحة للمتغيرات والتطور والتعامل مع الواقع المُعاش من خلال هذا الإطار الذي لا يعوق التطور, بل يدفع إليه ويضع المبادئ التي توجه إليه

, فيتمثل في الفكر الإسلامي بصورة عامة الثابت والمتطور في وقت واحد , ثبات القواعد التنظيمية وتطور الأشكال المعرفية في كل المجالات الحياتية, وقد جاء النتاج المعماري بعيداً عن هذه القواعد التنظيمية الثابتة , واختلاف في الأشكال والتعبير تبعاً لثقافة كل جماعة , وتوافقاً مع خصوصياتها وخصائصها التي تفرق بينها وبين أي جماعة أخرى في العالم الإسلامي, وتجئ التشكيلات في كل بلدان العالم الإسلامي تعبيراً خالصاً عن الإطار الفكري الذي نظمه الإسلام وتحمل في نفس الوقت خصائص وسمات خاصة لكل جماعة (شكل 1). [2]

هذا ما تتسم به الحضارة الإسلامية والعمران الإسلامي, وتتميز عن باقي الحضارات الأخرى كالإغريقية والرومانية والتي نراها ثابتة بمبادئها ومفاهيمها ولكنها مختلفة بتشكيلاتها تبعا لاختلاف المكان والبيئة المحيطة وثقافة الجماعة.

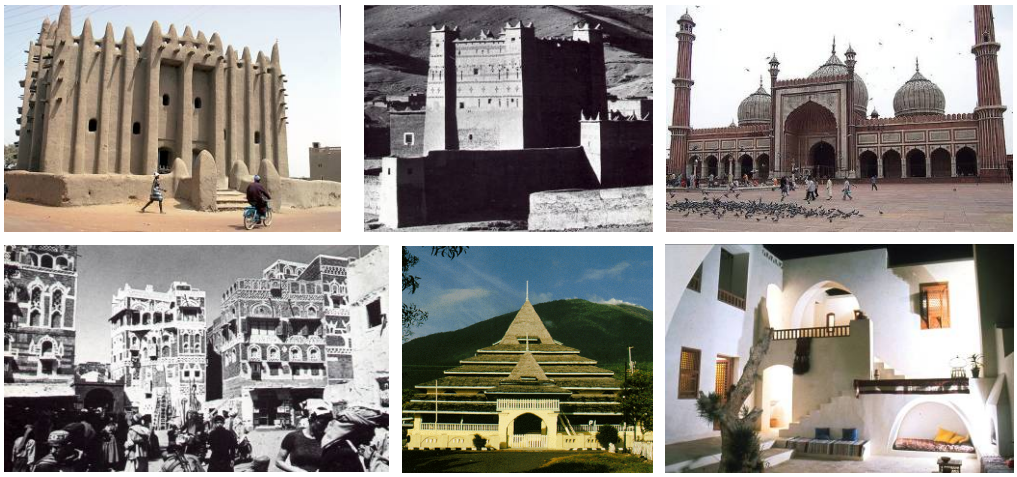

شكل (1): ثبات القواعد التنظيمية وتغيُر الأشكال المعرفية في العمارة الإسلامية.
نماذج من المعمار الإسلامي في العديد من بلدان العالم العربي

2-1-2 العوامل اللافيزيقية

وهى العوامل الغير مادية والتى لا يمكن قياسها بالقوانين المادية ولكن يمكن قياس تأثيرها على النتاج المعمارى كالعوامل السيكولوجية والاجتماعية، والتي كان لها أثرا شديدا على المعمار الاسلامى فوجود الفناء وان كان بهدف بيئي إلا انه هدفه الاجتماعي لا يقل أهمية عنه. فهدف إدخال البيئة الخارجية كعناصر الضوء الطبيعى والهواء الخارجي داخليا لمستعملي المنزل خاصة النساء مع توفير هذا القدر من الخصوصية كان أمراً واجباً، وكذلك استحداث تفاصيل مثل المشربية والمجاز والدرقاعة في المسكن الاسلامى كان من احد أسباب تواجدها وتشكيلها بهذه الصورة سببا اجتماعيا. وبالتالي كان لهذه العوامل اكبر الأثر في تشكيل العمارة الإسلامية(شكل 2).

3-1-2 العوامل الفيزيقية

وهى العوامل المادية المؤثرة على تشكيل المبنى والتي يمكن قياسها والتعامل معها من خلال قوانين وحسابات ولا يمكن تجاهلها مثل الناحية الوظيفية والعوامل البيئية والتكنولوجية المتاحة والمواد الإنشائية المتوفرة والممكن استخدامها وهى العوامل التي اسماها "رابوبورت" العوامل المعدلة للشكل المعماري The Modifying Factors. [3]

شكل (2): تفاصيل في العمارة الإسلامية تخدم هدفا اجتماعيا إضافة إلى العوامل البيئية.

ويمكن ملاحظة تأثير هذه العوامل بسهولة في تشكيل المعمار الاسلامى الذي تميز بقدرته الفائقة في توفير بيئة مناخية ملائمة, وربما أُستخدمت تلك المعالجات لتحقيق غرض اجتماعي وبيئي معاً، تلك المعالجات ظهرت بدايةً على المستوى التخطيطي والعمراني وانتهاءاً بالمعالجات التصميمية على مستوى تفاصيل البناء, بحيث يزيد من كفاءة استخدام تلك الأبنية من حيث التهوية الطبيعية, وتنظيم درجة الحرارة, وتعديل نسبة الرطوبة, وحجز الأتربة والكائنات الحية وتوزيع الإضاءة, وعزل الضوضاء... الخ, وهو ما سيتم مناقشته فى الفقرة الثانية.

وكذلك قدرتها على التوافق مع مواد وأساليب الإنشاء المتاحة بدءا من مادة البناء الحجر أو الطوب أو غير ذلك واستعمال العقود والمقرنصات وما توفره البيئة المتاحة من تكنولوجية وخامات. وهو احد أهم المتغيرات في الفترة المعاصرة (شكل 3).

شكل (3): توافق إنشائي وتكنولوجي في تفاصيل العمارة الإسلامية.

هذه المؤثرات المتعددة على الفكر المعماري الاسلامى أعطاه القدرة والسلاسة في التعامل مع منابع الإبداع من تقليد أو تجريد أو استلهام, وكذا عناصر التشكيل المعماري من أبعاد, ومفردات,

وغلاف, وملمس, ولون... مروراً بأسس وجماليات الشكل والتشكيل المعماري المختلفة من وحدة, نسب وتناسب, ومقياس(تعظيما وتضخيما), واتزان (بشقيه الإستاتيكي والديناميكي, وسواء كان هذا الاتزان في التشكيل والتكوين, أو في الفراغات والكتل, أو بسيطرة عنصر على التكوين), والتنغيم, والمعنى، والقيمة, والرمز, والإيقاع سواء كان منتظم أو غير منتظم, ويأتي بالتكرار أو بالقافية.

كذلك تعرضت العمارة الإسلامية لمبادئ تحقيق الجمال في الشكل كالتماثل, والتوافق, والحقيقة,والشفافية والوضوح, وديناميكية التشكيل في المباني التي تنوعت بين خمس مستويات متعددة وهى التشكيل المركزي, والخطي, والمحوري, الإشعاعي, والمتداخل. [4]

وعند دراسة الفكر التخطيطي والعمراني في العمارة الإسلامية, ومنها على سبيل المثال تقسيم الشوارع, فنجد التدرج الواضح والتسلسل القوي لها من الأكبر للأصغر, من الشارع الرئيسي إلى الشوارع الفرعية إلى الدروب إلى الحارات إلى الأزقة وانتهاءاً بالعطف ...أيضاً يُلاحظ تدرج الفراغات في الفكر الإسلامي تماماً كتسلسل الشوارع ,وذلك تبعاً لوظيفتها بدايةً من ساحة المسجد , ومروراً بساحات المباني العامة, وانتهاءاً بفناء المسكن, مع ملاحظة أن جميع هذه الساحات والأفنية زُودت بعناصر بيئية وجمالية كالماء والنبات (شكل 4).

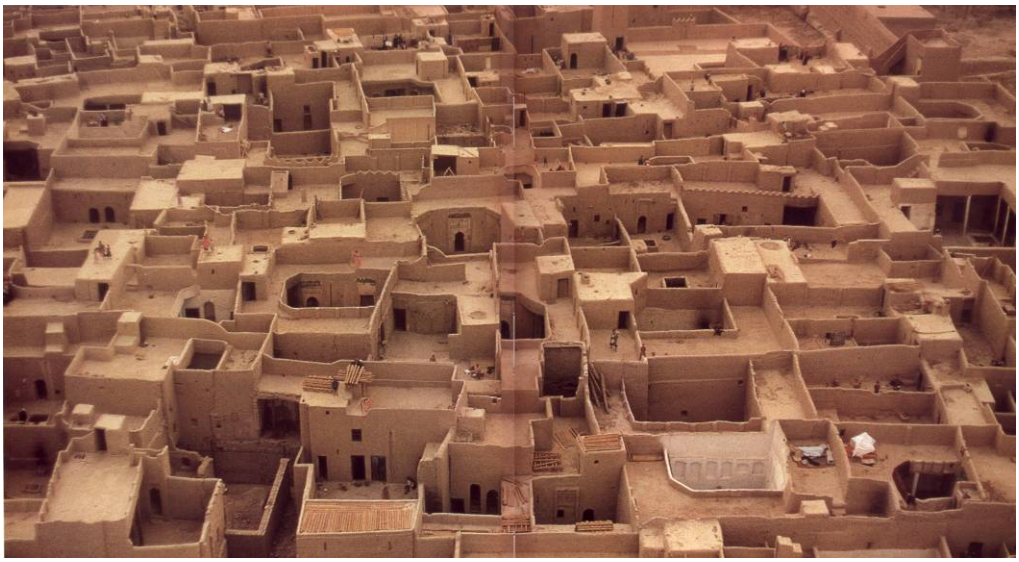

شكل (4): تخطيط المدينة الإسلامية الصحراوية المدمج حيث الأفنية والممرات المغطاة.

<u>ويمكن تلخيص ملامح جماليات العمران الإسلامي في الآتي:</u>

الإحساس الفطري بالمنفعة، ملائمة الأشكال المُستعملة للإنشاء، استعمال نسب ومقاييس تعبر عن روح الفكر الإسلامي من ناحية البساطة في التعبير، الاعتماد على الفناء الداخلي كعنصر أساسي في التصميم، باعتباره المصدر الأساسي للتهوية والإضاءة، استعمال عناصر معمارية لمعالجة العوامل المناخية (كالقباب والشخاشيخ العلوية)، ربط التكوين الفني جميعه بالأشكال الهندسية واستعمال المواد الطبيعية (حجر,رخام,خشب), لإعطاء الألوان المطلوبة. العناية باللمسات الإنسانية بإدخال المزروعات والنافورات والمجاري المائية, وتنسيقها بشكل هندسي غاية في الإتقان(شكل 5). [5]

جميع هذه القيم تناولتها العمارة الإسلامية واتخذتها كمبادئ وأطر أساسية للفكر, بل وأكدت على تلك القيم باستخدام بعض العناصر مثل عنصر الكتابة ,Calligraphy وهندسة الشكل Geometry, والماء Water, وأشكال الزخرفة النباتية والحيوانية Figures and animals, وقد عبر Charles Correa تعبيراً مُختصراً عن رؤيته للإقليمية بأن التشكيل يتبع المناخ Form follows Climate..وهو ما يتطابق إلى حد بعيد مع مفاهيم ومبادئ وفكر العمارة الإسلامية. (6)

شكل (5):تكوينات فنية وخامات طبيعية خلال تشكيلات هندسية ونباتية.

إن العمارة الإسلامية قد اشتملت على عدة مبادئ وأفكار ورؤى وتكوينات وعناصر رئيسية تاهت منافعها وفوائدها الجمة أمام غزو التكنولوجيا الحديثة , بينما لم تزل في غاية الصلاحية لأن تقوم بنفس الوظيفة التي كانت تقوم بها في العصور السابقة , ولا تتعارض مع الاتجاهات الحديثة في التصميم والتكنولوجيا.

2-2 مشكلات في العمارة المعاصرة

استطاعت الحضارة والعمارة الإسلامية أن تخلق حيزاً من التفرد الثقافي يكون عوناً في إنتاج معماري مُميز لها ولأمتها, كما استمرت فى انجاز هذه الإبداعات المعمارية قرونا طويلة ولكن ظهرت بعض العوامل شيئاً فشيئاً التي آلت إلى تدهور البيئة المبنية في العالم العربي الإسلامي , ومن هذه العوامل كما يحددها احمد مصطفى عبد الغفار ما يلي :- (7)

1. غياب البعد الثقافي في العمارة :Absence of Cultural Dimension الثقافة في جوهرها, "هي ما تؤدي بحاملها إلى تكوين رؤية خاصة يرى بها الكون والإنسان". وبالتالي فإذا ما غاب البعد الثقافي عن فن من الفنون أصبح فناً ليس له أصول وليس له جوهر, ومن ثم فإن العمارة كأحد الفنون إذا فقدت هذا الجانب أصبحت لا تمثل مجتمع بعينه أو ثقافة بعينها, وهو ما عليه الثقافة الآن... أصبحت ثقافة مختلطة ليست واضحة الجذور, نبني عليها إنتاجنا فيخرج عديم المرجعية, وبالتالي شاذ عن مجتمعنا غريب في مفرداته غير مفهوم على مستوى الشكل أو التفاصيل.

2. غياب البعد الاجتماعي في العمارة Absence of Social Dimension: انشغل الفكر المعماري السائد في العالم كله إلى حد كبير في بالشكل بعيداً عن مواجهة التلوث البيئي والسكاني والذوقي, وفي نفس الوقت لكل مجتمع ظروفاً خاصة تميز العلاقة بين المعماري والمجتمع, لذا فممارسة المعماري الغربي اليوم – الذي يستقي منه المعماري العربي ويستلهم مبادئه وأفكاره- هي ليست كما في مجتمعاتنا الإسلامية والنامية, والتي تحمل دائماً ثقافاتها جميعاً معني علاقة الفرد بالمجتمع, وأنها ليست علاقة أحادية, ولا تؤلف وحدة مستقلة, فهي لبنة متمازجة في تكوين المجتمع, وحالة متأصلة في التكوين الحياتي للإنسان, لأن مختلف فعاليات هذا الإنسان تتحقق في بيئة اجتماعية ولا تنطلق قدرات ملكاته الإبداعية إلا في تفاعله ضمن التكوين الاجتماعي.
3. غياب البعد الإيماني والوجداني Absence of Spiritual Aspect:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينا أحمد شوقي

حاولت العمارة الشعبية Vernacular Architecture العودة بالعمارة إلى وجدانها وروحانياتها وأخذ العديد من المعماريين على عاتقهم إعادة إحياء وتبصير المعماريين برموز العمارة الإسلامية والأنساق العمرانية , والتي أفرزتها عقيدة الإسلام وكانت تطبيقاً حياً لمبادئه, إلا أنهم في أغلب الأحيان حاولوا تنميط وتكرار المفردات التي كانت يوماً ما اللغة التي يعبر بها المجتمع عن معتقداته. ولهذا كان التطبيق الحديث لها بعيداً كل البعد عن المعاني الحقيقية لتلك المعتقدات, وفي معزل عما ورائها من أهداف إيمانية ووجدانية.

4. التغيير الديموجرافي: حدثت تحولات كبيرة في البيئة المبنية حدثت في العالم العربي والإسلامي بعد زوال الاستعمار, وفي نفس الوقت حدثت تغييرات ديموجرافية أو سكانية , أفرزت مشكلة متصاعدة , وأصبحت الكثافة السكانية في مدن العالم العربي والإسلامي مخيفة , وكان الحل هو قيام المباني الجديدة محل القديمة بعد هدمها .

5. سوء استغلال الخبرات الأجنبية: فيقارن Charles Correa بين التدخل الأجنبي الحادث في منطقة الخليج العربي , وبين تجربة تصميم مدينة شانديجار(الهند), أي بين المعماري الأجنبي العامل في الخليج الذي لا يغوص داخل أعماق المجتمعات العربية بطبائعها, وصفاتها الشخصية المُميزة, وبين لوكوربوزييه الذي أمضى كثير من الوقت والجهد هو ومعاونيه في فهم عادات المجتمع الهندي وصناعاتهم, حتى تنتقل لهم الصورة الذهنية كاملة.

6. سيطرة التكنولوجيا Techno centrism: فأصبحت الفراغات والساحات التي كانت مُلتقي الناس بصورة مباشرة مُهملة ومُهمشة وحل محلها الآن التليفون والتليفزيون والفيديو والحاسبات الشخصية والإنترنت, وغيرها من الوسائل التي خلقت طرقاً جديدة للالتقاء غير المباشر.

7. عدم الثقة بالنفس: فالانسياق الكامل وراء كل ما هو حديث دون المشاركة في خلقه وإبداعه, واعتقادنا بعدم استطاعتنا اللحاق بركبه, هو جزء أساسي من مشكلتنا, وهو عدم الثقة بالنفس.

8. تحديد طرز العمارة Standardization of Architecture Styles: فميل معماري العالم العربي الإسلامي نحو تحديد طرز للعمارة, وسيرهم وراء ما نسميه بالموضة يقف حائلاً دون تحقيق عمارة تعبر عن خصائص ثقافية معينة, ويقود إلى ضياع الفكرة المعمارية الأصلية, لأن هذه الطرز تلغي جميع أوجه العمارة الثقافية والروحية والوجدانية, وتبقى المظاهر السطحية والشكلية.

9. إهمال دور الحرف والفنون التقليدية: وتكمن المشكلة في عدم الوعي بدور جميع المشاركين في عملية البناء من حرفين ومعماريين ومالكي المشاريع, فهم جميعاً مشاركون في عملية الإبداع, فالعمارة ليست عن زخرفة الحائط, ولكن يمكن بواسطة الفنون تغيير شامل لديناميكية الفراغ ككل.

10. شخصية المعماري ومهنة العمارة: فشخصية المعماري وأهمية قدرته على تحمل المسئولية تجاه مهنته للنهوض بها وبالمنتج المعماري نفسه داخل حدود العالم العربي والإسلامي... تلك الشخصية تتأثر بما يحيط بها من ظروف اقتصادية وسيطرة تكنولوجية وإعلامية, قد تحيد به عن خلق شخصية خاصة به وإنتاجه المعماري.

11. التعليم المعماري Architectural Education: فالمعماري المتلقي أو الفرد المتعلم يتعرض لنماذج تعليمية غريبة عنه وعن ثقافته, وأكثرها غربية, ولا يجد أمامه أي نماذج محلية تصنع الاتزان في عقله, وترسخ الزهو بما حوله من إنجازات وعمارة أنتجتها من سبقوه, ولا يمنع هذا من وجود بعض الحالات الاستثنائية على مستوى بعض رجال التعليم المعماري أو الممارسين, سواء في مصر

أو العالم العربي الإسلامي أو النامي, قد أخذوا على عاتقهم توجيه طلابهم إلى أن العمارة جزء من إنجازات المجتمع , وأن تنمية هذا المجتمع أو المشاركة فيها جزء لا يتجزأ من عملهم.

12. أثر النقلة المفهومية في وسائل الإعلام The effect of Mass-Media: فقد شاركت الصورة الحديثة للإعلام في التأثير على الإنتاج المعماري للمجتمعات العربية الإسلامية, كما اقتسمت مع التعليم المعماري الموالي للتوجه الغربي- الموصوف بأنه عالمي – السيطرة على عقول وفكر وإبداع المصمم, فشكّل بذلك الإعلام والتعليم الأسلحة الرئيسية للفكر العالمي والمُستخدمة في تفعيل السيطرة على الإنتاج الحضاري لأي مجتمع.

كان من المفترض أن يستمر تطور العمارة الإسلامية خلال القرنين التاسع عشر والعشرون, إلا أن هذه العوامل والتي كانت بدايتها مع الاحتلال الأوروبي للدول الإسلامية وهو ما أدى إلى إيقاف عملية تطور العمارة الإسلامية , واللجوء إلى الطرز الأوروبية, فيمكن على سبيل المثال تقسيم المراحل التي مرت بها العمارة في مصر والعالم الإسلامي في هذين القرنين إلى عدة مراحل:- [8]

مرحلة بناء قصور الحكام ومساكن الأثرياء عن طريق الاستعانة بالمعماريين الأوروبيين, مثل قصر محمد على بشبرا, وقصر الجوهرة, وقصر رأس التين.

1. مرحلة انتشار الطرز الأوروبية في عهد الخديوي إسماعيل .
2. مرحلة ظهرت فيها محاولات لخلق عمارة إسلامية معاصرة (محطة مصر بميدان رمسيس) وفيها احتفظ جميع تشكيلات ومفردات العمارة الإسلامية ولكن المحطة من الداخل مُشيدة بالطرز الإنشائية الحديثة.
3. مرحلة بدأ فيها ظهور المعماري العربي محل المعماري الغربي, ولكن بعقلية غربية, حيث درس العمارة الغربية كعمارة معاصرة, والعمارة الإسلامية كعمارة تاريخية.

ويمكن إيجاز أساليب التعامل مع تراث العمارة الإسلامية, ومحاولة إبرازه وتوظيفه انتفاعياً وبصرياً وفراغياً وبيئياً , وذلك من خلال ثلاث مستويات:- [9]

- مباشر : ويعتمد على التلقيط والاستنساخ الردئ والاستخدام العشوائي للعناصر البصرية .
- استخدام المفردات التراثية كغطاء لمعمار الحداثة : ويعتمد على المعالجات السطحية للنتاج المعماري, باستخدام لغة العمارة الإسلامية في أبنية مُصممة وفقاً لأسس الحداثة (شكل 6).
- الفهم المتعمق للتراث: ويعتمد على الفهم المتعمق لمفردات ولغة العمارة الإسلامية, واستخدامها في إنتاج تشكيلات تجمع بين المحلية والانتفاعية والأصولية والإبداعية.

شكل (6): استخدام التراث الإسلامي لخدمة التشكيل المعماري كغطاء لمعمار الحداثة.

ولو عقدنا المقارنة بين ما كان عليه عمران العالم العربي الإسلامي, وما هو عليه الآن, فسوف نلاحظ على الفور كيف كانت مدن القاهرة وبغداد وفاس وأجرا وغيرها تتمتع كل منها بالتنوع والتفرد في المنتج المعماري والعمراني وبالتالي في البيئة المبنية ككل, أما الآن فهذه البيئة في كل المدن لا تستطيع التمييز بينها إلا عن طريق النماذج التاريخية الموروثة لديها , أما الإنتاج الحالي فهو عبارة عن أشكال متعددة لا يحكمها أي نظام ولا تتبع أي فكر مدروس, وأغلبها ما هي إلا عملية نقل بها قدر كبير من المسخ لعمارة أنتجتها طرز ومدارس غربية, هذا على الرغم من أن النظام القيمي الحاكم وقتذاك والمنتج للحضارة كان أقوى وأكثر سيطرة فكرية من نظام اليوم, حيث كانت الحضارة الإسلامية تمارس وقتها نوعاً من العولمة الحضارية, لكنها تحافظ على التفرد الثقافي الذي كان أحد أسبابه احترام خصوصية وتاريخ أي أمة عربية وترويضه داخل نظام أشمل حتى يعطى المذاق

شكل (7): كيف أصبح المعمار الإسلامي ملهم للمعمار المُعاصر.

الخاص للمنتج الحضاري المتعدد المظهر والمتحد الجوهر (شكل 7). [10]

ولكن إذا ما تم طرح أحد الحلول للتواصل فيما بين فكر العمارة الإسلامية والفكر الحداثي, مع المحافظة على تحقيق هوية وثقافة وعادات مجتمعاتنا العربية... يكون هو فكر العمارة الإقليمية والتي عرفها Charles Correa بأنها العمارة التي تربط بين كلٍ من العمارة المحلية والعمارة العالمية, بحيث يستوحي المعماري بعض الأفكار والتصورات والرؤى من العمارة المحلية ويختزنها في عقله, ويقوم بعملية التصميم بمداخل عالمية, ويستعين بما تطرحه العالمية من مدخلات أخرى تلازم عملية التصميم, ولكن يكون هذا إلى جانب الاستعانة بالأصول الثقافية, والبحث في أعماقها, والقدرة على تحويل هذه التصورات سواء محلية تراثية أو عالمية لتعبر عن الثقافة المحلية. [11]

3. المدخل البيئي وأثره في إنتاج العمارة الإسلامية التراثية

وصلنا في الفقرة السابقة إلى مجموعة من الأسس التى شكلت مفاهيم المعمار الاسلامى واستخلصنا من ذلك أن المعمار الاسلامى عبارة عن مجموعة من المفاهيم وليس الأشكال وارتباطه الحقيقى بهذه المفاهيم المؤسسة وأما هذه الأشكال فهى حلول لمشاكل وتراكم لخبرات الأجيال. هذه المفاهيم التى أنتجت العمارة الإسلامية تأسست بصورة أساسية كما وضح على مفاهيم العقيدة التى شكلت حياة المجتمع وبالتالى انعكست انعكاسا مباشرا لا واعيا على العمارة ومفاهيم العمارة.

هذه الحالة من حياة المجتمع خلال روح العقيدة الإسلامية انقطعت لقرنين من الزمان وبالتالى فاستعادة هذه الروح العقائدية أمر لا يمكن نقاشه فى مثل هذا البحث وبالتالى كان لزاما أن نفكر بصورة أكثر واقعية لاستعادة بعض المفاهيم المؤسسة للفكر المعمارى الاسلامى. ومن ثم فمن المنطق الابتعاد عن العوامل الميتافيزيقية والاقتراب من العوامل اللافيزيقية والفيزيقية والتى كان لها تأثيرا مباشرا فى إرساء التشكيلات النهائية التى اتسمت بها العمارة الإسلامية.

ومن أهم العوامل التى اهتمت بها العمارة التقليدية فى العصور الإسلامية كانت المؤثرات المناخية والتى أنتجت عبر مساحة زمنية ومكانية كبيرة أشكالا وحلولا متعددة ومتغيرة حسب متطلبات المكان والعوامل المؤثرة فيه، فبدءا من تأثير المناخ على التخطيط العام للمدينة الإسلامية ذات النسيج المتضام بشوارعها المتعرجة والمنكسرة والضيقة للحماية من الشمس المباشرة. بالإضافة إلى الأفنية المتعددة التى تسبب حركة هواء داخلية بين المناطق المظللة ذات الضغط الجوى المرتفع إلى المناطق المشمسة ذات الضغط الجوى المنخفض ثم تأثير المناخ الحار على تشكيل المباني المصمتة فى غالبها والتى تلتف حول أفنية داخلية مظللة لتحقيق الهدف البيئي إضافة إلى الأسباب الاجتماعية الأخرى (شكل 8).

ثم توجيه الملاقف ناحية الشمال لاستقبال الهواء البارد والشخشيخة لسحب الهواء الساخن للخارج واستخدام المشربيات والبواكى المظللة والمجاز وغيرها من التفاصيل التى لا يهدف البحث إلى تعدادها وتقديمها ذلك أنها قد درست مرارا فى العديد من الأبحاث خاصة تلك التى تناقش تاريخ العمارة الإسلامية.

شكل (8):المحددات المناخية وأثرها في تشكيل الفناء في المسكن الإسلامي.

ما يهُمنا في هذا البحث هو التأكيد على أن هذه العوامل المناخية على امتداد الإقليم الاسلامى لم تنتج أشكالا ثابتة ذلك أنها هي ذاتها ليست ثابتة فى المناطق المختلفة فهى فى باكستان غيرها فى اليمن غيرها فى الأندلس، إضافة إلى الاختلاف الثقافي الشديد بين هذه المناطق والذي كان له اكبر الأثر فى تغير الأشكال المعرفية المعبرة عن المفهوم العقائدي المؤثر فى مبادئ العمارة الإسلامية.

فعلى مستوى التغيرات المناخية لكل منطقة جاءت الحلول المعمارية شديدة التباين فنجد موائمة العمارة الإسلامية فى مصر فى المنزل العربي أنتجت حلولا وتفاصيل ذكرناها من قبل وهى الملقف والفناء والمشربية والشخشيخة والنافورة والبواكى المظللة كما يظهر فى بيوت مثل السنارى والكريدلية والسحيمى وزينب خاتون وغيرها. أما المنزل فى اليمن فلم تكن هذه الحلول تصلح لإحداث توافق بيئي فى مثل هذه المنطقة الصخرية شديدة الحرارة والانعكاس الحراري، الحل هنا كان فى الابتعاد عن هذه الأرض الصخرية التى تعكس حرارة الشمس قدر المستطاع وبالتالى فشل إمكانية استخدام المباني الأفقية واللجوء إلى التوجه الرأسي كحل للمسكن اليمنى على عدة ادوار متتالية فى مساحة ضيقة ليبتعد المعمارى عن سطح الأرض إضافة إلى الفتحات الصغيرة جدا والحوائط الخارجية السميكة. وأصبحت هذه هي السمة المميزة للعمارة اليمنية وهو التعبير الاساسى عن العمارة الإسلامية هناك (شكل 9).

شكل (9):اختلاف التشكيلات المعمارية لإحداث حالة من التوافق في المسكن اليمني والمصري.

التوافق مع البيئة والعوامل المناخية فى العمارة الإسلامية خلال هذين المثلين أتى بحلول مختلفة تماما فى المناطق المختلفة فهى ليست أشكالا ثابتة ومفردات محفوظة أصبحت للأسف هي المعبرة الوحيدة عن العمارة الإسلامية وهو ما أردنا أن نؤكده أن التوافق مع البيئة ليس بالضرورة استخدام نفس المفردات التراثية القديمة وإنما فى طريقة التفكير فى حل المشكلات البيئية وهو ما يفتح بابا نحو التجديد والتعلم من الفكرة أكثر من التعلم من الشكل كما هو سائد الآن. وهو ما سنناقشه فى الفقرة التالية فى المحاولات الجادة التى قدمها المعماريون للتوافق البيئي وهو ما نرى انه مدخلا منطقيا لفكر العمارة الإسلامية فى ظل غياب المرجعية العقائدية فى الحياة المعاصرة.

ولذا لما لا تكون العمارة الإسلامية في العصر الحديث هي حلقة الوصل الأساسية بين القوى المختلفة في عملية صياغة العمارة – على حد قول Charles Correa – فالقوة الأولى هي الثقافة Culture وهى كالخزان الضخم, هادئ ومستمر ومتجدد عبر الأزمنة المختلفة, أما القوة الثانية فهي تطلعات المجتمع Community Aspiration , وهي قوة ديناميكية متغيرة ومتقلبة ومختلفة تماماً عن الثقافة... وهاتان القوتان دائمتا التفاعل , والقوة الثالثة هي المناخ Climate أو البيئة المحيطة , والتي يمكن أن تكون مصدراً للخيال وملهماً للمعايير الفلسفية للفراغ السماوي لعمارة أي إقليم, فهي تشارك بذلك كقوة مساعدة في تشكيل المخزون الثقافي لأي أمة, وهى المحدد الذي يمكننا وبسهولة التعامل معه، أما القوة الرابعة فهي التكنولوجيا Technology والتي لها وقع سريع التغيير على العمارة, فهي تتدخل في مواضيع متعددة تتعلق بكافة تفاصيل البناء وتؤثر بذلك على تشكيل العمارة في العالم كله. وبالتالي يكون الهدف الأساسي هو أن تكون العمارة الإسلامية بصورتها الحديثة الآن, وبما يجب أن تكون عليه هي محصلة لتلك القوى الأربعة (شكل 10). [12]

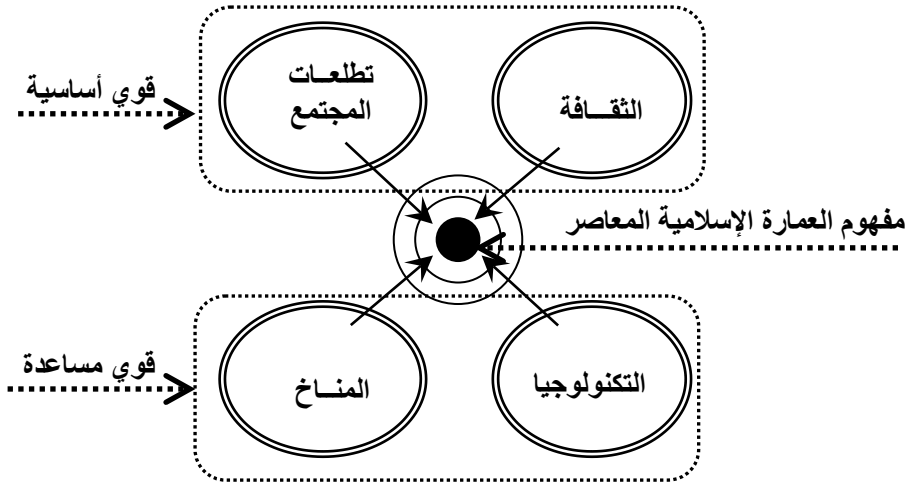

شكل (10): إعادة مفهوم وصياغة العمارة الإسلامية المعاصرة .

ومما سبق يتضح أن طرح المدخل البيئي – والذي هو فكر أساسي في العمارة الإسلامية- كأحد المداخل الأساسية التي يتم عن طريقها تفعيل العلاقة بين العمارة الإسلامية والعمارة المعاصرة, أو بمفهوم آخر كمدخل لتحديث العمارة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين , وجعلها أكثر توائماً مع المكان والزمان والفكر الثقافي والاجتماعي المتواجد الآن على ساحة عالمنا العربي.

4. محاولات معمارية للتوافق البيئي

إذا كانت المعايير والمحددات التى أوجدت فكرا معماريا إسلاميا كما ناقشناها فى الفقرة الأولى بكل ما فيها من ميتافيزيقيات وظروف اجتماعية قد تغيرت الآن أو تغيرت النظرة إليها وهو ما جعلنا نركز فى هذا البحث على احد الثوابت المادية شديدة التأثير فى إنتاج هذه العمارة وهى المحددات البيئية التى أنتجت -كما وضح بالفقرة الثانية- حلولا معمارية مناسبة ومتوازنة مع هذه المحددات البيئية من ناحية ومع كافة المتغيرات المادية والاجتماعية والروحانية من ناحية أخرى والتى بتغيرها قد يتغير الشكل النهائي للمنتج محتفظا على الأساس الذي اوجد هذه الأشكال.

من هنا كان مدخلنا للعمارة المعاصرة والتجارب المعمارية التى سيتم اختيارها على أساس مدى توافقها البيئى ومدى إمكانية هذه التجارب من ملئ فجوة التغريب التى اجتاحت العالم الاسلامى بحلول معمارية لا تناقش سوى الشكل المعمارى فقط , نناقش هذه النماذج بيئيا ومدى قدرتها على التعامل مع أشكال العمارة التراثية للتعبير عن الهوية المحلية وقدرتها على التعبير عن فكرة المعاصرة والمتغيرات التى أفرزتها تطورات تكنولوجية واقتصادية ومتغيرات اجتماعية فى علاقة الإنسان بالآخر ومتغيرات ميتافيزيقية فى تأثير الدين فى تشكيل حياتنا اليومية , ولتنتج فى النهاية عمارة يطلق عليها عمارة مناسبة للمكان والزمان المتواجدة فيه, عمارة متوافقة مع الظروف والمتغيرات ومعبرة أيضا عن المجتمع الإسلامي.

وقد قام البحث بتقسيم هذه التجارب التي احترمت المحددات البيئية وتوافقت مع الظروف الاجتماعية إلى ثلاث توجهات رئيسية من حيث فكرة التواصل مع العمارة الإسلامية لإنتاج أشكال معبرة عن هذه القيمة وهى:

4-1 تشكيلات ومعالجات تقليدية للتوافق مع المحددات البيئية.

4-2 تطوير التشكيلات التقليدية مع الحفاظ على التوافق البيئى.

4-3 احترام المحددات البيئية كمدخل لتوافق العمارة المعاصرة مع العمارة الإسلامية.

وسوف نقدم لهذه التوجهات الثلاث, ولنماذج معبرة عنها.

4-1 تشكيلات ومعالجات تقليدية للتوافق مع المحددات البيئية:

هذه المجموعة من المعماريين ترى استثمار خبرات جماعية لآلاف السنين وعدم استبدالها بقرار فردى أو أهواء شخصية ما دامت ناجحة ولا تزال تثبت ذلك ولا تزال تملك أيضا هذه النزعة للتواصل مع المستخدمين وتؤدى توافقا بيئيا واقتصاديا وحوارا اجتماعيا مفهوما لدى العامة والخاصة, وبالتالي فإعادة استخدام هذه المفردات والأشكال التراثية كما هى دون تغيير هو المدخل من وجهة نظر هذه المجموعة لإعادة اعتبار الشخصية المعمارية ولملأ فجوة التغريب التى اجتاحت الأمة الإسلامية. واختيار الأمثلة الملائمة لهذا الاتجاه اعتمد على الفكرة التى أوجدتها والمتمثلة فى رغبة المعمارى فى توافق المبنى مع الظروف البيئية والاقتصادية الاجتماعية والتى كان من وجهة نظره أنها الحل الأمثل لتحقيق هذه المحددات.

من أهم الأمثلة المعبرة عن هذا الاتجاه المعمارى حسن فتحى فى محاولاته العديدة لإعادة أنماط البناء الشعبي للتواصل مع فترة ما قبل السقوط – على حد تعبيره عن فترة التغريب – التى حدث فيها هذا التناقض الرهيب مع مواد البناء المحلية ومع طبيعة البيئة التى يتم فيها البناء وبالتالي كانت العودة لان ما قدم خلال هذه الفترة من التغريب لا يلاءم البيئة المبنية ولا الاجتماعية, فكان الحل هنا هو العودة للتشكيلات التقليدية والشعبية والريفية واستخدام المواد الطبيعية المتواجدة فى المكان والتى ثبت عبر مئات بل ألوف السنين مدى كفاءتها البيئية والاقتصادية والتى تحمل فى طياتها خبرات هذه السنين وحلول مشاكل تطورت خلال هذه الفترة فكانت الحوائط الحاملة السميكة من الطوب اللبن أو الحجر بعد ذلك والقباب والأقبية والملاقف والأفنية والمجاز وحركة الهواء من الداخل والخارج (شكل 11).

إن إعادة الاكتشاف لهذه الأشكال على المستوى الرسمي هو ما أعطى الريادة لهذا الاتجاه, وعلى الرغم من وضع البحث للمعمارى حسن فتحى فى هذا الاتجاه إلا أن عمله لم يكن يخلو من التجديد ذلك انه أضاف خبراته وعلمه إلى الخبرات السابقة فاظهر حلولا جديدة ومتطورة لمشاكل قديمة مثل مشكلة حركة الهواء فى الفرن الداخلى بالمنازل والاستفادة من فكرة الفن النمساوي. [13]

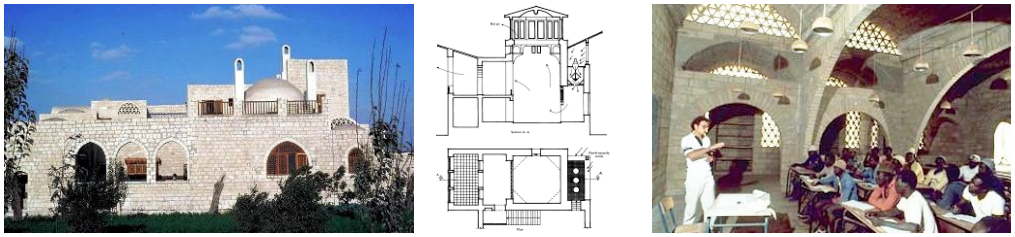

شكل (11): استخدام حسن فتحي للتشكيلات التقليدية لإحداث التوافق البيئي.

وهذه الطريقة التي أعاد اكتشافها حسن فتحى للتعامل مع العمارة لم تكن فقط على مستوى تفصيل المبنى أو على مستوى النواحي المناخية وإنما توافق مع البيئة الاجتماعية على المستوى التخطيطي

والتفصيلي, فاهتمامه بالدراسة الانثروبولوجية الاجتماعية لأي منطقة أو قرية قبل تصميمها يعد احد أهم المؤثرات فى اتخاذ القرار التصميمي, وعلى المستوى الاقتصادي فالمواد المتاحة والمتوفرة هي الأصلح للاستخدام وإلا ما توافرت فالطين فى الريف والحجر فى الأماكن التي يتوفر بها الحجر, إنها حالة من الاندماج فى الطبيعة والتكيف معها (شكل 12).

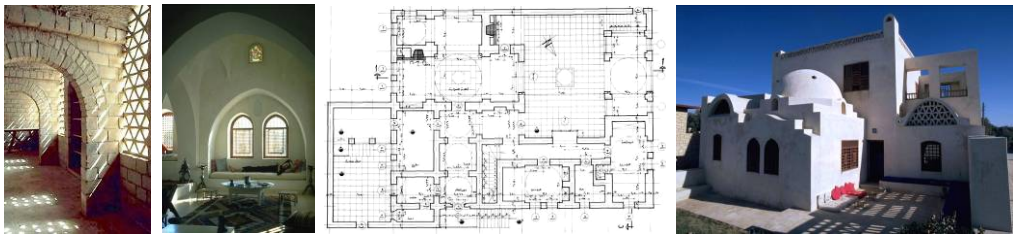

شكل (12): استخدام التشكيلات التقليدية داخل وخارج المسكن لإحداث التوافق البيئي.

أما عبد الواحد الوكيل فيرى انه للتواصل مع العمارة الإسلامية التى انقطع إرسالها وتواصلها مع المجتمع قرنين من الزمان فيجب أولا العودة إليها والتعلم منها من نماذجها المميزة ومفرداتها وعلاقاتها ومواد بناءها وطريقة تفاعلها، ولن نتمكن من إتمام عملية التعلم هذه إلا عن طريق نقل هذه الأشكال وتنفيذها ومن خلال هذه المرحلة يمكن فهمها ثم تطويرها لما يستجد من مشكلات وليس تطويرا من اجل التغيير وإنما التطوير للضرورة ومن هنا جاءت أعماله شديدة التوافق هذه نقلا طبق الأصل أحيانا لأعمال ونماذج من العمارة التاريخية، هو لا ينكر هذا المبدأ حتى نتعلم وبعد ذلك نستطيع أن نقدم للعمارة الإسلامية أعمالا تحمل هذا الفكر وان تغيرات التشكيلات.

وبالتالي حدث التوافق مع المتطلبات البيئية والمناخية خلال فكرة العودة، فهذه العودة لم تكن لأشكال فقط وإنما لكل مسببات هذه الأشكال ومواد البناء ليست الخرسانة والحديد وإنما الحجر بكل ما يحويه من ملائمة بيئية ومفردات مثل الفناء والملقف وغيرها ليست استعارة شكلية بقدر ما هى استعادة لوظائف وأشكال قد اختفت.

رامى الدهان يسير على خط حسن فتحى مطورا فى مفردات اللغة المعمارية التى أسسها أستاذه وان كانت معظم مبانيه قد وظفت وأنشئت لغرض سياحي فذلك يرجع لنجاح هذه الأشكال فى التعبير عن التراث والتاريخ المصري المناسب للمباني السياحية ولكنه يرى أن هذه المواد وهذه الأشكال وهى الأنسب للمجتمع المصري فهي ليست أشكالا زائفة ولا مواد مصنعة وإنما أشكالا حقيقية ومواد متجانسة مع البيئة المحيطة والظروف المناخية والبيئية فى مصر والتى استطاع أن يقدم خلالها أعمالا شديدة التوافق بيئيا عبر صيغ جديدة لهذه الأشكال (شكل 13).

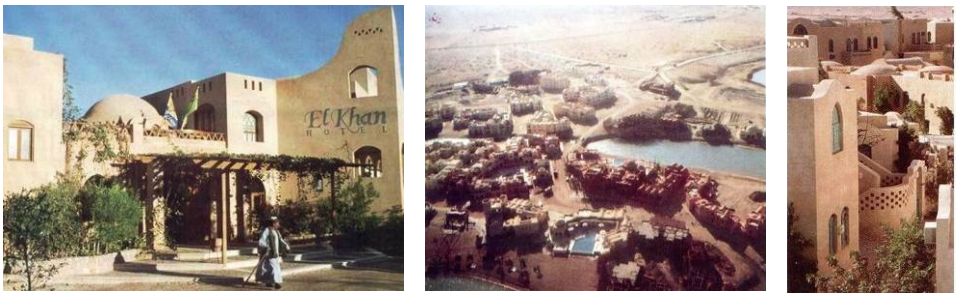

شكل (13): نماذج لعمارة رامي الدهان واحترامه لمبادئ الفكر التقليدي.

احمد حامد يقدم فهما جيدا لهذه الحالة من التوافق مع البيئة فهو يؤكد أن لكل عنصر من العناصر التى استخدمت فى العمارة الإسلامية وظيفة محددة وفهما واضحا وبالتالي علينا أن نتبنى هذه الوظيفة لهذا العنصر وليس وضعه كما هو للتعبير عن التواصل مع العمارة والتراث الاسلامى وبالتالي فاستخدامه للعناصر الموجودة فى العمارة الإسلامية كان بهدف إعطاء الصيغ النهائية لتكوين المنشأ خلال فهم هذه الوظائف لاستخدام الحجر والعقود والمشربيات والتشكيلات فى الحوائط والأسقف وقماش الخيام فى التصميم الداخلي. (14)

كما يقدم جمال عامر استيعابه لقدرة هذه الأشكال لإعطاء حالة من الامتزاج مع البيئة المحيطة خلال إعادة استخدام الإشكال التقليدية التى ثبت عبر التاريخ أنها الأصلح والأطول عمرا والأكثر توافقا كما فى مبنى متحف الخزف بالفسطاط. فهو يقدم فيه التشكيلات التقليدية كما هى القباب والأقبية والملاقف والتفاصيل الخارجية والداخلية ليس لمجرد الشكل ولكن لأنها الأصلح للظروف البيئية والمناخية فى الإقليم الصحراوي الذى ننتمي له (شكل 14).

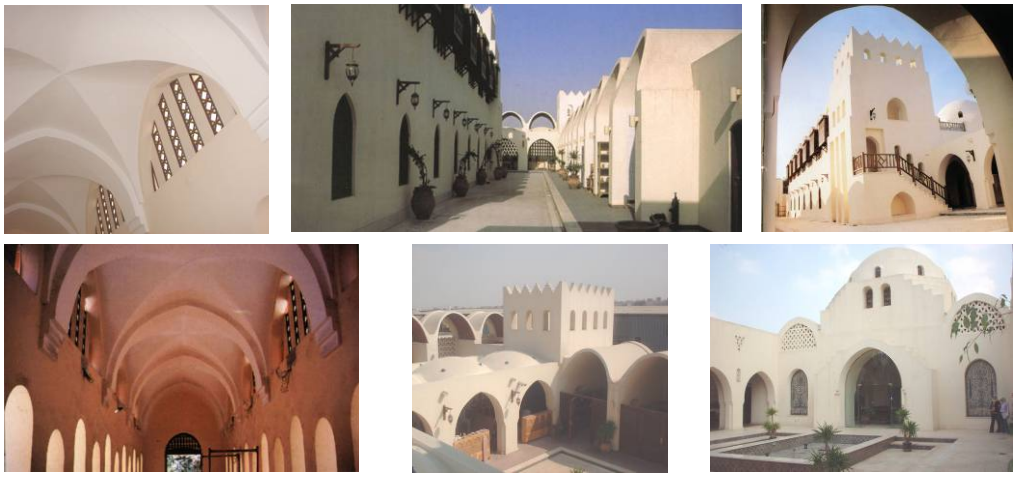

شكل (14): أحد أعمال المعماري جمال عامر- متحف الخزف بالفسطاط .

2-4: تطوير التشكيلات التقليدية مع الحفاظ على التوافق البيئي:

أصحاب هذا الاتجاه الفكرى يرون مدى روعة وجمال التشكيلات التراثية وقدرتها على التعبير عن روح العمارة والفكر الاسلامى وفى نفس الوقت يرون أن هناك متغيرات كثيرة حدثت خلال قرنين من التغريب، متغيرات تكنولوجية واقتصادية واجتماعية وسياسية ولو أن هذه الفترة من التغريب المعمارى والفكرى لم تحدث لتطورت الأشكال المعرفية المعبرة عن العمارة الإسلامية كنتيجة طبيعية لهذه المتغيرات.

من هنا كان الحل من وجهة نظر أمثال هؤلاء المعماريين ليس بالعودة لأشكال معبرة عن فترة سابقة وإنما بفهم هذه الأشكال ووظيفتها الأساسية التى وجدت من اجلها ثم التفكير فيها مرة أخرى خلال واقعنا المعاش وتطويرها بما يتلاءم مع وظيفتها من ناحية ومن ناحية أخرى إحساسنا بهذه الأشكال ذاتها. فلا مانع من استخدام مواد جديدة كالحديد والزجاج والخرسانة وغيرها بما يتلاءم مع عدم الإخلال بالتوافق البيئي ولا مانع من دمج هذه المواد مع مواد تقليدية كالحجر ليأتي تشكيلا جديدا تماما يملك روح العمارة المعاصرة وفكر العمارة الإسلامية.

ومن أهم المعماريين المعبرين عن هذا التوجه الفكرى عبد الحليم إبراهيم والذى يظهر أسلوبه فى التعامل مع العمارة خلال حديثه حول تصميم الجامعة الأمريكية بالقاهرة بأن:

"العمارة التقليدية ليست أشكال ولكنها مجموعة من القرارات وتشمل هذه القرارات تشكيل النسيج العمراني للجامعة وربط الجامعة بالمدينة هو صلب العمارة التقليدية وصلب العمارة الإسلامية، أنها عمارة مجتمعية وليست عمارة تذكارية بل هى عمارة تقوم على فكرة الجماعة، وهى عمارة معرفية فكل مبنى فى العمارة الإسلامية هو تجربة معمارية تحوى عملية تعليم مستمرة"[15](شكل 15)

شكل (15): الجامعة الأمريكية بالقاهرة الجديدة- المعماري/عبد الحليم إبراهيم وآخرون .

يخرج عبد الحليم لغة الشكل من صلب الفكر المعمارى وهى القضية الأولى التي يطرحها البحث ثم يناقش بعد ذلك مجموعة المبادئ التصميمية التى يتضح منها رؤيته حول العمارة التقليدية والتوافق البيئة كأساس لها:

"أول هذه المبادئ التصميمية هو التكثيف العمراني فالمشروع يبنى فى الصحراء وهنا لا نتحدث عن عمارة إسلامية بل نتحدث عن عمارة بيئية مناسبة، والمناسبة هنا تعنى الاستفادة من التجارب السابقة، وتجاربنا السابقة فى أوج قيمتها هى تجارب فى العمارة الإسلامية وبالتالي فعمارة الجامعة الأمريكية هنا ليست نوع من النزوع الشكلى للعمارة الإسلامية بأقواسها وأشكالها الرومانسية ولكن هي في واقع الأمر اعتراف بالقيمة الحقيقية لهذا الإرث كحلول مبدعة لمشاكلنا اليوم وغدا." (16)

القضية هنا ليست الأشكال التى أوجدتها العمارة الإسلامية بقدر ما هى مجموعة من المبادئ التى يجب الالتزام بها ما دمنا فى نفس الظروف البيئية والاجتماعية.ثم يستطرد حديثه حول المبدأ الثانى للعمارة التقليدية (شكل 16):

"أما المبدأ الثانى فهو التفاعل بمعنى أن أيا كان ما نفعله فنحن نضع فى المقام الأول لن ما نفعله من الفراغات هو فراغ يحتضن نشاط إنساني يجمع بين الطالب والأستاذ وبالتالي تحدث العملية المعرفية من خلال الاقتراب ليس بمعنى أن تتداخل الفراغات ولكن البيئة نفسها بيئة تعليمية فهي تحوى فى توجيهها ومعالجاتها وتشكيل واجهاتها والمراد المستخدمة فيها التنبؤ بالمعرفة"[17]

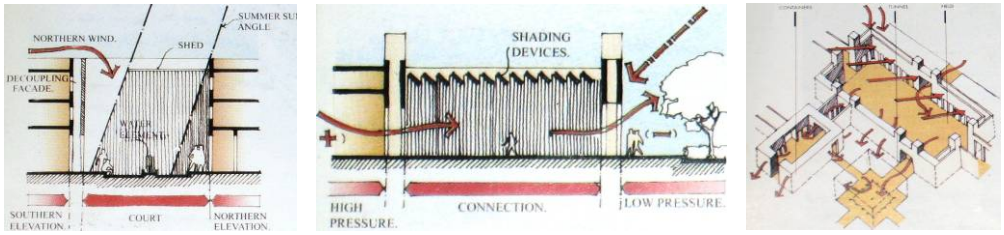

شكل (16): نماذج للدراسات البيئية التي أثرت في تشكيل مباني الجامعة الأمريكية.

يرى هنا عبد الحليم أن قضية التفاعل بين المستخدم والبيئة المبنية واحد من أهم المبادئ التى قامت عليها العمارة الإسلامية واحد أهم المبادئ التى يجب الحفاظ عليها والتى لا تتيحها الأبعاد أو القياسات للفراغات بقدر ما تتيحها المعرفة.

"المبدأ الثالث هو الاستجابة للبيئة بشكل حقيقي بمعنى أننا لا نحب العمارة الإسلامية لأننا أبناؤها بل نحبها لأنها مريحة وتضيف سعادة لشاغليها..... وقد أخذنا الجانب البيئي على انه المحك وقد التزمنا بإحكام العلاقات الفراغية المختلفة وعلاقاتها بالعوامل البيئية وما يتعلق بالتوجيه وحركة الشمس والهواء وأننا سنصل إلى عمارة مصرية مهواه ومبردة ومدفأة بشكل طبيعي ..... والمحلية هنا هى مبدأ هام من مبادئ العمارة المحلية ونحن هنا لا نتحدث عن استخدام الحجر أو الاسمنت المصري ولكن نتحدث عن المعارف المحلية ودورها فى عملية البناء..... إننا ملتزمون بظروف مناخية وبيئية ومواد محلية لها إمكانات وحدود وهى فى النهاية صيغة تشكيلية لها وقع وهذا الوقع يمس المستعمل ويؤثر فيه. كل هذا فى الواقع ليس حداثى ولا ما بعد حداثى وإنما هو التزام، بمعنى عمارة ملتزمة ذات قيمة"[18]

تأتى تشكيلات المبانى التى ينتجها عبد الحليم خلال هذا الالتزام تطويرا لهذا الإرث العظيم من العمارة التقليدية ومتوافقا مع معطيات هذا العصر وقد يكون المبنى خالي من العقود والقبوات وغيرها ولكننا نستشعر فيه بهذه القيمة التى نحسها فى مبانينا التقليدي وقد يستخدم الزجاج والحديد وغيرها ولكن خلال مفاهيم واضحة للعمارة التقليدية والتزام كامل بمعطيات البيئة المحلية من مواد وظروف مناخية (شكل 17).

شكل (17): تشكيلات المباني التي ينتجها عبد الحليم تعُد تطويرا لإرث العمارة التقليدية وتوافقاً مع معطيات العصر.

وفى نفس الاتجاه نجد المعمارى راسم بدران يقدم مبانيه على أنها الصلة بين ما كان من ارث معمارى إسلامي مبهر وما نصبو إليه من تقدم تقنى وفني وعلمي لم يكن متواجدا فى هذه الأزمنة وليكون عامل البيئة المحيطة والدراسات البيئية احد العوامل المؤثرة فى تشكيل المبنى (شكل 18).

ومن الأمثلة الأخرى التى نجدها بين هذا الاتجاه والاتجاه الأول هى مستشفى القاضي بموريتانيا من تصميم مؤسسة لتنمية الطبيعية للعمارة والعمران فى إفريقيا فعلى الرغم انه من الوهلة الأولى للنظر للمشروع قد نرى انه مبنى تقليدي تماما بقبابه ومواد بناءه وتفاصيله وكأنه امتداد للإرث التاريخي للمنطقة إلا أن الواقع يؤكد روح الإبداع والتجديد التى أفرزها الفكر التصميمي، فالتشكيلات لم تكن مطروقة من قبل لاستيعاب الاحتياجات المختلفة داخل المستشفى ولكنها قدرة على تطويع مادة محلية تقليدية لصياغة أشكال مبتكرة بدلا من إنتاج نوعية تقليدية من المباني. [19]

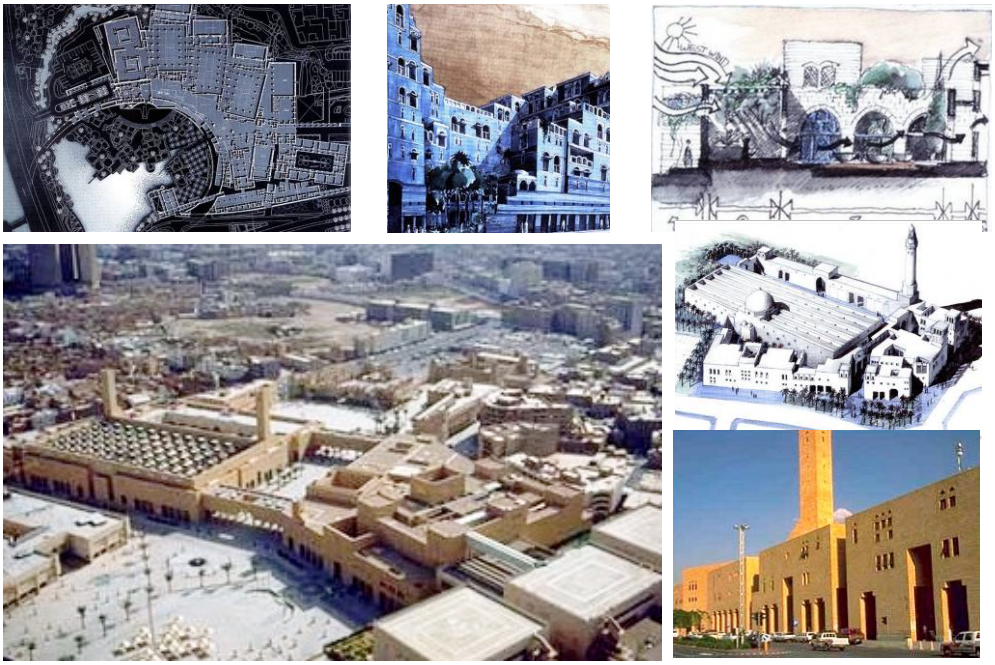

شكل (18): نماذج لأعمال المعماري/راسم بدران, وقدرته على تطوير التشكيلات التقليدية.

نجد هنا أن المبنى شديد الوعى بالعوامل البيئية والتأثر بها ودراستها واستيعابها فى كل المفردات والتشكيلات الموجودة سواء فى شكل القباب والأقبية والحوائط الخارجية والفتحات وحركة الهواء والخامات المحلية المستخدمة كل هذا يجعل من المبنى إضافة للتوجه الثانى حيث تطوير التشكيلات التاريخية والحفاظ على التوافق البيئى، إلا أن عدم استخدامه لأي من الوسائل التكنولوجية أو الخامات الجديدة المعاصرة تجعل البحث يدرجه فى التوجه الأول (شكل 19).

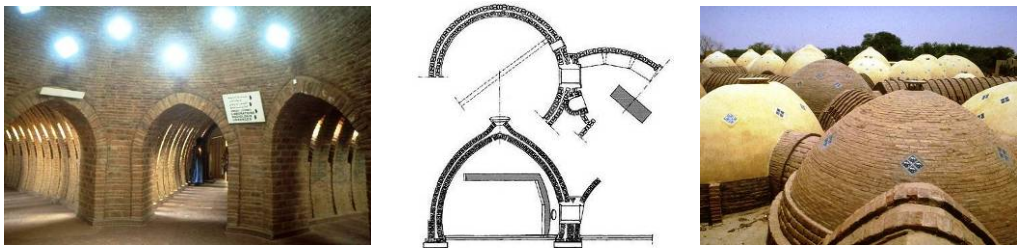

شكل (19): تطوير التشكيلات التقليدية في مستشفى الحاكم بموريتانيا.

وكذلك نجد "لوى كان" فى مبنى البرلمان ببنجلاديش تطويعا واضحا للتشكيلات والرموز التاريخية ليعطى علامة مميزة فى المكان وحالة من الارتباط مع الشعب فى بقعة من أفقر دول العالم. ومع هذا التشكيل الجديد إلا انه يحافظ على توافق المبنى البيئى خلال جودة التوزيع للعناصر الهامة بالمشروع (شكل 20).

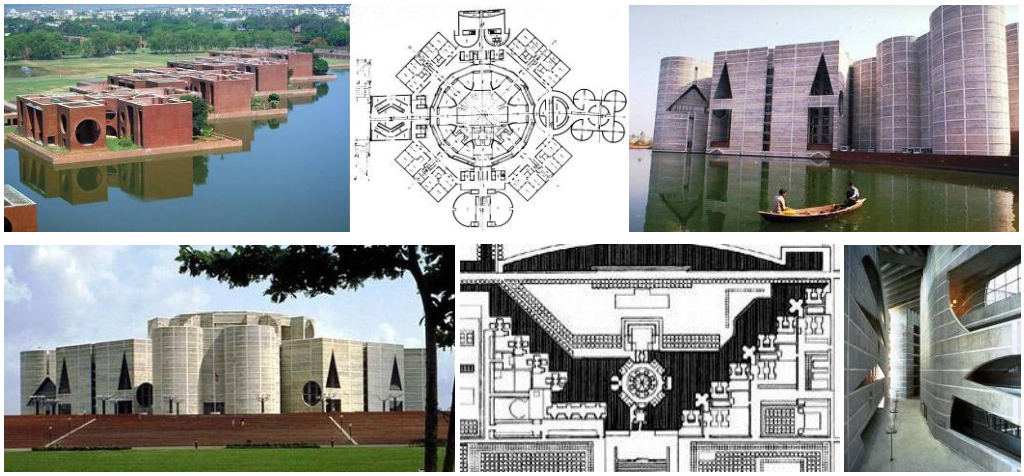

شكل (20): تطويع لوي كان لرموز التشكيلات التقليدية مبنى البرلمان ببنجلاديش.

3-4: احترام المحددات البيئية كمدخل لتوافق العمارة المعاصرة مع مفاهيم العمارة الإسلامية:

أصحاب هذا التوجه يرون التقدم العالمي والتكنولوجيا الحديثة بكل ما فيها وما قدمته الحداثة العالمية للعمارة على أنها إمكانات لا يمكن تجاهلها وإنما يمكن تطويعها واستخدامها لخدمة عمارة مناسبة للإقليم المتواجدة فيه بما يتلاءم مع متطلبات هذا الإقليم ودون وجود أي اعتبار للشكل كمرجعية للتركيب المعمارى سواء بصورته التقليدية أو المطورة وإنما تأتى الأشكال معاصرة تماما قد تبدو حداثية أو حداثية بها روح العمارة التراثية فكانت توجهات العمارة الايكولوجية والعمارة الخضراء والعمارة البيومناخية وغيرها، وكانت المؤثرات البيئية هى المدخل الاساسى لأمثال هؤلاء المعماريين لإيجاد حالة من التوافق بين ما تقدمه المعاصرة من ناحية وبين المتطلبات المناخية المحلية.

حالة التوافق هنا نراها على أساس أن أهم ما ميز العمارة التراثية فى أقاليمنا أنها اهتمت بمسألة المناخ وبالتالي جاءت هذه المحاولات المعاصرة لتقديم حلولا مبتكرة لهذه المشكلات الأزلية بصورة طبيعية، هذه المشكلات التى تم التغاضي عنها فى فترة الحداثة ولكنها جاءت بتشكيلات حداثية مبتكرة لم تألفها العمارة المحلية.

من أهم المعماريين الذين أسسوا لهذا التوجه المعمارى "كينيث ييغ" Kenneth Yeang والذى بدأت ظهور أفكاره بوضوح فى مبنى المركز الرئيسى لشركة .I.B.M فالمبنى هو نتاج لدراسة استمرت سنوات طويلة قضاها المعمارى فى دراسة الأسس البيومناخية Bioclimatic اللازمة لبناء مبنى مرتفع فى أجواء استوائية وعلى الرغم من الصورة الحداثية للمبنى التى تظهر فى مسطحات هائلة من الحديد الألومونيوم والزجاج والجسم نفسه من الخرسانة إلا أن هذه النوعية من الدراسات البيومناخية هى التى أعطته الانتماء للمكان فالمبنى عبارة عن حلزونين تغطيهما المسطحات الخضراء والتى تسمى حدائق السماء.

ومع هذه التفاصيل الحداثية نجد المبنى قد غطى بكاسرات الشمس حتى نظام التكييف الداخلى لا يعتمد على الوسائل الصناعية فقط ولكنه يعتمد على الوسائل الطبيعية أيضا بما فيها الاحتمال المستقبلي للطاقة الشمسية والتى توفرها وحدات خاصة لتجميع الطاقة من خلال تركيبها على تاج المبنى وهو عبارة عن تركيب أنبوبي متميز (شكل 21).

شكل (21):تأثير الدراسات البيومناخية في تشكيل مبنى IBM ,
كمدخل لتوافق العمارة المعاصرة مع البيئة.

الحس البيئي يكتمل بالتوزيع الحذر للعناصر حسب التوجهات المناخية المحببة فعناصر الحركة شرقية حيث الحرارة الشديدة وباقي الانتفاعات فى الجهات المناسبة لكلٍ. وتم أيضا توظيف التهوية والإضاءة الطبيعية توظيفا جيداً إلى جانب الزراعات فى جميع المبنى.

هذا المبنى لكينيث بينج تألف من مجموعة من العناصر الحديثة والجريئة خلال توجه بيومناخى اتسم بالمحلية فى التعامل وهو الذي اعد هذا العمل كي يصبح جزءاً لا يتجزأ من مكونات البيئة المادية فى المدينة خلال تعبير قوى وغير مألوف للتطور التكنولوجي وهو ما اسماه المعمارى اسم العمارة البيومناخية Bioclimatic Tall Building وهى العمارة المستخدمة لأساليب التحكم المناخي. أنها صياغة جديدة لعمارة معاصرة تتفاعل مع المناخ المحلى. (20)

وفى كثير من أعمال المعماريين عبد الحليم إبراهيم وراسم بدران ما يجعل البحث يضعهما فى هذا الاتجاه من استخدام جيد للمواد الحديثة بصورة جديدة وموظفة تشكيليا وبيئيا بما يخدم فكرة التوافق مع المكان والجماعة ولكن وضع البحث لهما فى التوجه الثانى ناتج عن أفكارهما نحو التواصل وتطوير العمارة التراثية بما يتفق والتطور التكنولوجي والاجتماعي (شكل 22).

شكل (22): نماذج من أعمال راسم بدران وعبد الحليم واستخدامهما للمواد الحديثة.

ومن الأمثلة التى استفادت من تأثير العوامل المناخية ولكن بشكل مستحدث مباني جامعة مصر للعلوم والتكنولوجية بمدينة السادس من أكتوبر فى مصر للمعمارى احمد عابدين، وقد بنيت الفكرة الأساسية فى التصميم على مراعاة النواحي البيئية والتى أسست للتشكيلات المعمارية المميزة لمباني خلال مجموعة من الدراسات الخاصة لتوجيه المبانى والتوزيع الجيد للعناصر واعتماد المسطحات الملائمة للفتحات وحركة الهواء بين الداخل والخارج وأيضا الإضاءة الغير مباشرة للفراغات التعليمية وتأثير كل هذه العوامل على تشكيل المباني (شكل 23).

فنجد مجموعة الملاقف المستحدثة والمميزة لمعظم المبانى التى تقوم بسحب الهواء البارد من الشمال ثم تخلله لمعظم الفراغات وخروجه من الجهة الجنوبية حيث المنطقة المشمسة وضغط الهواء المنخفض. وأيضا التشكيلات فى سقف المكتبة والمميزة بتشكيلاتها الهرمية للتحكم فى دخول الضوء وعدم دخول الشمس المباشرة للداخل فيظل الهواء الداخلى بارد ولا يحدث إبهار ضوى أيضا. إضافة للحوائط المنكسرة والموجهة للشمال. كل هذه التفاصيل المستحدثة وان كانت التقنية المستخدمة فيها بعيدة عن التطور التكنولوجي فى مثال "كينيث بينج" إلا أنها محاولة جادة للاستفادة من خصائص الموقع المناخية والتوائم معها دون نقل للتشكيلات التقليدية من العمارة التراثية.

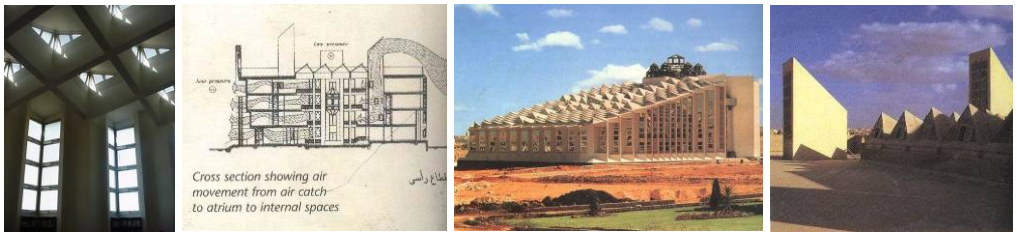

شكل (23): استخدام المدخل البيئي بقوة في مباني المعماري أحمد عابدين.

ومن الأمثلة الأخرى التى يمكن إدراج بعض الأفكار فيه تحت هذا الاتجاه مبنى معهد العالم العربى بباريس للمعماري جان نوفل وآخرون وان كان الكثير من أفكار ومفردات المبنى تميل حو توجه ما بعد الحداثة الشكلى سواء فى شكل الفناء الداخلى أو العديد من التفاصيل إلا إن استفادة المعمارى من شكل المشربية الإسلامية وقدرتها على التحكم فى دخول الضوء الغير مباشر واستيعابه لوظيفتها ثم تحويل هذه الوظيفة البيئية شديدة الأهمية إلى حل معمارى معاصر خلال الاستفادة بالتكنولوجيا المعاصرة واستخدام الخلايا الضوئية للتحكم فى العدسات وكمية الضوء الداخل خلال النهار المختلفة يجعلنا نرى فيه لمحة للتوجه نحو المعاصرة والتوافق البيئي (شكل 24).

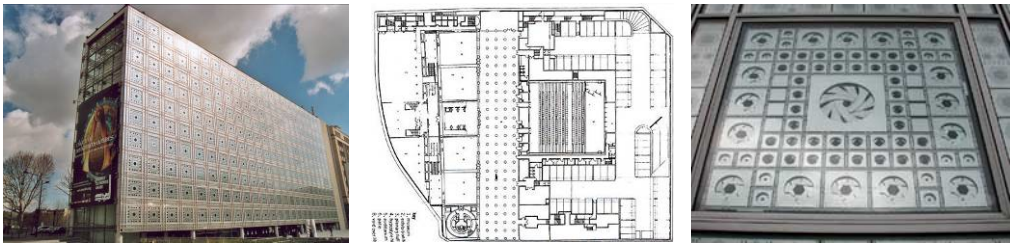

شكل (24): محاولة تطويع التكنولوجيا المعاصرة في إعادة استخدام وظيفة المشربية التقليدية .

5. الخلاصة

ناقشنا في هذا البحث فكرة التواصل مع العمارة الإسلامية، ليس مجرد حنينا لحضارة قوية ضعفت، أو الأشكال معمارية تؤثر في وجداننا، وتذكرنا بأمجاد الأجداد، ولكن ناقشناها من وجهة نظر مناسبتها للمكان، ولطبيعة الحياة، ولتواصلها مع الثقافة العربية الإسلامية. وبالتالي بدأ النقاش حول المبادئ التي أسست لوجود هذا الفكر المعماري، وليست الأشكال المعمارية، لنستفيد من هذه الحلول المتراكمة لمشاكل لانزال نعانى منها بسبب حالة التغريب الفكري، والاجتماعي، والثقافي الذي تعانى منه الشعوب العربية الإسلامية.

فناقشنا العوامل الميتافيزيقية، واللافيزيقية، والفيزيقية، التي أثرت في تشكيل مبادئ الفكر المعماري الإسلامي، وكيف أثرت هذه العوامل في إيجاد مفردات الشكل، ثم العوامل التي أدت إلى انهيار هذا الفكر، وحالة التفسخ الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والديني، الذي تعانى منه الشعوب العربية.

التواصل مع هذا الفكر المعماري الذي قطع تواصله قرنين من التغريب الفكري أكد البحث على انه لا يمكن أن يحدث إلا بإعادة تأثير هذه العوامل الثلاثة المشكلة له، وهى العوامل الميتافيزيقية، واللافيزيقية، والفيزيقية. ولكن الواقع المعاش الآن أدى بنا إلي اختيار احد هذه العوامل شديدة التأثير من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون قابلة للنقاش والقياس والتطوير العلمي، وهو ما لا يتفق مع العوامل الميتافيزيقية، ولكنه يتفق مع العوامل المناخية، والتوافق البيئي، ذلك أنها كان لها الأثر الكبر في تعديل الشكل المعماري الإسلامي إلى ما نراه في المباني الممثلة للفترات المختلفة، كما انه قابل للقياس والتطوير في العمارة المعاصرة.

وقد قام البحث برصد العديد من المحاولات التي توافقت مع العوامل المناخية، واستطاع أن يقسمها إلى ثلاث توجهات مختلفة، من حيث تعاملها مع مفردات الشكل والتشكيل المعمارى وهى:

1- تشكيلات ومعالجات تقليدية للتوافق مع المحددات البيئية: وهى المجموعة التي رأت أن الأشكال التراثية قدمت حلولا جيدة للمشاكل البيئية، وبالتالي يمكن إعادة استخدامها مرة أخرى لإيجاد هذا التواصل مع العمارة الإسلامية.

2- تطوير التشكيلات التقليدية مع الحفاظ على التوافق البيئي: وهى المجموعة التي أكدت أن المتغيرات المعاصرة التكنولوجية والعلمية لابد لها من التأثير والتعديل في مفردات الشكل المعماري خلال القرنين الذين انقطع فيهما تواصل العمارة الإسلامية، فقررت تطوير هذه المفردات، واستخدام مواد جديدة بجانب المواد التقليدية مع الحفاظ على فكرة التوافق البيئي.

3- احترام المحددات المناخية كمدخل لتوافق العمارة المعاصرة مع العمارة الإسلامية: وهذه المجموعة ترى انه لا يمكن تجاهل ما قدمه العلم والتكنولوجيا، وترى ما قدمته الحداثة العالمية على أنها إمكانات لا يمكن تجاهلها، وانه يمكن تطويعها واستخدامها لخدمة عمارة مناسبة للبيئة المحيطة دون أي اعتبار للشكل كمرجعية للتركيب المعماري.

هذه التوجهات الثلاثة على اختلافها الشكلي إلا أنها اتفقت على فكرة التواصل مع العمارة التقليدية خلال احترم المحددات المناخية، والتي كان لها اكبر الأثر في تشكيل العمارة التقليدية في بلدان العالم الإسلامي.

6. الهوامش والمراجع:

[1] - فاضل رسول، (2000). هكذا تكلم على شريعتي، دار الكلمة للنشر، بيروت، ص 167.
[2] - طارق عبد الرءوف محمد ، (2003). دور المانيفستو في إثارة التحولات المعمارية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، ص 28-29.
[3] - يقصد رابوبورت هنا في كتابه House Form and Culture أن هناك عوامل أخرى هي التي كونت الشكل المعماري وأسست لمفرداته وسماته وبعد ذلك يأتي تأثير هذه العوامل المادية لتتعامل مع الشكل المعماري وتعدل فيه وتطوره ليتوافق معها.
[4] - الفت حمودة، (1981)، نظريات وقيم الجمال، ص 234.
[5] - أيمن زيدان،(2007). الاتجاهات الحديثة لهندسة الشكل والتشكيل في تناول التراث الإسلامي في العمارة المعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الهندسة جامعة القاهرة، ص 147.
[6] - احمد مصطفى عبد الغفار، (2000). عمارة ما بعد الإقليمية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة.
[7] - المرجع السابق، ص 41- 63.
[8] - فريد محمد شافعي، (1988). العمارة العربية الإسلامية – ماضيها وحاضرها ومستقبلها. ص 209- 220. في أيمن زيدان مرجع سابق، ص 11.
[9] - هناء محمود شكري، (2000)، التنمية العمرانية للمناطق التاريخية في المدن القديمة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الهندسة جامعة القاهرة، ص 47.
[10] - احمد مصطفى عبد الغفار، مرجع سابق، ص36-39.
[11] - المرجع سابق، ص70.
[12] - المرجع السابق، ص 72.
[13] - حسن فتحي، (1991). عمارة الفقراء، ترجمة مصطفى إبراهيم، مطابع كتاب اليوم، الطبعة الثانية، القاهرة. ص 151-163.
[14] - طارق عبد الرءوف محمد ، (1996). عمارة ما بعد الحداثة ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، ص 186-187.
[15] - مجلة البناء، العدد 154، (2003). العمارة جسر الثقافات، إعداد: احمد إسماعيل، حوار مع عبد الحليم إبراهيم ص 6.
[16] - المرجع السابق. ص 6-9.
[17] - المرجع السابق. ص 6-9.
[18] - المرجع السابق. ص 6-9.
[19] - احمد مصطفى عبد الغفار، مرجع سابق، ص304-306 .
[20] - مجلة مدينة، العدد 11، (2000). ص 36- 39.